ابخرة كونت سحابة بورتسموث

•

لم تقبل هـــذه السحابة من أفق قريب ، ولم تظهر في الجو ظهوراً مفاجئاً ، ولكنها تجمعت من أبخرة شتى في آفاق غـــير منظورة ثم اقبلت تسعى في الافق من بعيد على مهل رويداً رويداً صادرة عن صنعة قدرتها تقديراً لتبلغ بها الخصب الذي شاءتـه من رذاذ ناقع لا من وابل غامر ، ولكن الرياح لم تجر بامرهـا ، ولم تخضع لارادتها ، فاذا هي تهيج وتعصف في هبوب فاجيء افسد على الصنعة غزلهـــا ، ورد السحابة قطعـاً منثورة لا تصلح لرذاذ ولا لوابل .

*

تلك هي (سحابة بورتسموث) التي نريد ان نتحدث عنهـــا في هذا الكتاب محاولين ان نؤرخ بها حياتنا الحاضرة ، ونساير هـذه

القافلة السائرة .

ولا احب ان يؤثر عني حديث مبتسر مبتور قليل النفع . لذلك لن اقتصر من وثبة العراق في كانون الثاني سنة ١٩٤٨ على كشف هذه السحابة دون ما يتصل بها من عوامـــل نشئها ، وعلاقات تكوينها وما يرتبط بها من الاحداث الدائرة على محورها دوراناً لا ينفك عنها بحال من الاحوال .

فمعاهدة بورتسموث وما اثارته في العراق من غليان انضج الوعي المتطور الواثب حادث انبعث في حشد من الاحـــداث المتشابكة المترابطة على نحو يبين فيها النقص حين يسقط أحدهـا من نسقها المسبوك ، فكيف إذا اسقطناها جميعاً وابقينا منهـــا واحداً من الوسط ؟ انه — اذن — عمل تافه شأنه يستحق عقاب المثلة ، ولا يليق بغير مجرمي المؤرخين او أغبيائهم الذين يجردون الاحداث من عناصرها وأسسها ظناً منهم ان الحادث ، يستطيـع ان ينسلخ بـ (الوحدة) عن تلك المقدمات والاسس الـتي تتألف منها عناصره .

والحديث عن (سحابة بورتسموث) وحدها لا ينفع هـــذا العصر فضلاً عن العصور القادمة ، وان شئت فاسأل من تظن بهم الخير مـن المتتبعين فستجدهم على الاكثر لا يعرفون من هـذا الحدث الفريد الا ظاهراً من الامر ، وتلك معرفة تقصر عن ادراك القيمة الصحيحة لهذه الوقفة الشعبية الخالدة المتقدمة بالتطور العربي اجيالاً عدة إلى الامام .

فالمتحدث عن هذه (السحابة) — بحكم ذلك كله — مـــلزم

بالتحدث قبلها عن اشياء تقع في اسسها وعناصرها فاذا لم يفعل فقد جاء حديثه ناقصاً منقصاً للواقع ، شائهاً مشوهاً للحقيقة ، قاصراً مقصراً عن نفع هذا العصر فضلاً عن العصور القادمة ، وعن موازنة الحادث العبقري فيما احدثه للعراق ثم للعرب ثم للشرق كله من مجد ، وكرامة ، ووجود .

ونحن من هذه العناصر أمام ثلاثة ان استغنينا عن غيرها فلا نستغني عن واحد منها كي نتبين ملامح هذا الحادث بوضوح .

واول هذه الامور: صلة الحادث بالسياسة الشرقية ، لأن إغفال هذه الصلة انما هو اهمال لاقوى عوامل الحادث المتصلة بالمطامع الاجنبية الطامحة الى منابع البلاد العربية وكنوزها وارزاقها .

والثاني : استعداد العراق للتطور ، لأن معنى اغفال هذا الاستعداد انما هو اهمال لقيمة الوثبة العلمية ، وتقبلها تقبلاً (امياً) لا تعمر بعده إلا قليلاً .

والثالث خطوات الحادث التاريخية والسياسية ، ومنها ينبثق ميدان الصراع يتبارز فيه (الطامع) الذي هو الاستعمار ، والمتطور الذي هو العراق ، ذاك بدهائه وشرهه وتحايله ، وهذا بإيمانه ووعيه وحذره .

صلة الحادث بسياسة الشرق

لم تكد الحرب العالمية تضع اوزارها بعد مصرع النازي ، وانهيار عاصمته برلين حتى نهضت من تلك الخنادق حرب أخرى لا تقل أهمية ولا خطراً عن الحرب التي هلل الناس لانتهائها

وكبروا ، وكان من الطبيعي ان تستشري الحرب من جديد بين الغالبين فقد كانت تدعو اليها اسباب كثيرة أهمها التنازع على الاسلاب والغنائم من جهة ، والتنافس (المبدئي) من جهة أخرى. ولئن كان ذلك كامناً ابان الحرب في ثنايا الانشغال بخطر العدو المشترك فقد كانت جذوره قائمة ناهضة ماثلة يلمسها كل من الخصمين في سريرته ويطوي عليها كشحه منتظراً الوقت المناسب لاعلانها .

ومن هنا بادر كل من الخصمين في اولى الفرص الى معالنة خصمه بما في نفسه ، واقبلا يتلاكمان بشراسة وعنف سراً وعلانية ويتساومان في مؤتمرات برلين وموسكو وباريس وسان فرانسيسكو ونيويورك وغيرها بشره أدى الى فشلها وجرهما وجرّ العالم وراءهما الى توقع حرب وشيكة ربما كانت على الابواب ان لم تتدارك بالحلول والترضيات المقنعة.

ومن دواهي الحرب الجديدة او العصر الجديد ان الصراع بين دولتين اتسع اتساعاً مدهشاً حتى كان معناه الصراع بين الدول جميعاً ، فلا تستطيع دولة في شرق أو غرب ولا في شمال أو جنوب ان تعتصم او تنحاز او تتجنب الشرارة حين تلمع في ناحية من بقاع هذه الكرة .

وكان هذا من المكاره التي جرها العلم الحديث والتقدم الفكري الهائل الذي جعل من الارض العريضة كفة حابل ، ولو اكتفى البشر بنعمة هذا العلم واستغنى عن بعض نزواته لكانت الجنة وفيها متسع للجميع .

ومهما يكن من امر فقد نشبت حرب فكرية على هذا النحو

بعد مصرع (برلين) تأشب فيها الصراع بين معسكري الروس والانجلو اميركان .

ثم كان الشرق أحد الميادين التي تعرضت للفحات هذه المنافسة المستفحلة بين الروس والانكليز . نعم لقد كان مفروضاً ان هذا الشرق منطقة انكليزية وسوق محتكرة لمطامحها ومطامعها ومصدر من مصادر قواها وثرائها الخالصة ، غير ان الحرب العالمية بدلت الحياة غير الحياة وابطلت تلك المقاييس المدرسية البالية وأحلت محل كل قديم جديداً بمفهومه ومصداقه جميعاً ، لذلك جاز لروسيا ان تنافس ، وجاز لنا نحن الشعوب الصغيرة ان نستعين بهذه المنافسة على التحرر والاستقلال بالمقدار الذي ينجينا من هؤلاء وهؤلاء جميعاً .

وهكذا بدأ التوازن يتكافأ في الشرق ، وبدأ الشرق يستيقظ ولكن حرص الانكليز على الاستعمار وقوة تشبثهم أمليا عليهم الاستمرار وان حاروا كيف يستمرون كما سنوجزه فيما يأتي من كلامنا .

أما العراق .. فقد دفعه سوء الحظ إلى أن يكون جزءاً من هذا العالم ، ثم دفعه الحظ السيء إلى أن يكون بلداً من بلدان الشرق المتعرض لمحنة هذه المنافسة ، لذلك لم يكن وحده واقعاً في طريق الحرص البريطاني وانما كان حلقة من السلسلة التي تريد بريطانيا أن تجعل منها هميانا ثميناً تشد به وسطها من الناحية الاقتصادية وبمكانة قوية تتسلح بها من الناحية الحربية ، وانها لتأمل بعد امتناع مصر وتحصنها بالمنافسة الراهنة بين المعسكرين الكبيرين

عن الاستجابة لمطالب (دفاعها المشترك)، ان يكون العراق حجة لها على مصر وعلى غير مصر من اقطار العرب اولاً والشرق ثانياً فيما تصبو اليه من كبح جماح هذه البلدان بمعاهدات تحطم بها اناف الشعوب .

هكذا بدا لها ان تبدأ بالعراق على اعتبار انه قطر معروف بقوة الشكيمة ، وتبرع لها اصدقاؤها المفتونون من ابنائه بتحقيق هذه الامنية . فبدأت من يومئذٍ تعد العدة وتتهيأ .

وكانت محتاجة في الواقع – من ناحيتها – الى تدبير كهذا لأن النفوذ الروسي أمعنَ في (العالم) إمعاناً عظيماً ،واقتحم البلاد المقدسة وانفها راغم ، فهي منه ازاء أمرين لا امر واحد ، وهما طرد هذا النفوذ اولاً ، وجعل الشرق جداراً في وجهه ثانياً ، فاذا تخلصت منه في الأمر الاول فانها محتاجة إلى تجنيد الشرق ضده في الأمر الثاني .

هذا اذا تطورت الأمور العالمية وصارت إلى حرب ثالثة .

وهي إذا تطورت الأمور اوانتهت إلى سلم محتاجة في الحالين إلى حقول النفط واكتشاف الكنوز المتوهجة في اعماق الارض العربية . وانها لخرافة من اسخف الخرافات ان تجلو عن هذه الجنان وتترك معادنها المتألقة دون أن تنقل من خيراتها ما يمتع لندن بالرخاء والبلهنية والنعيم .

وعند هذه النقطة يتجاوز الامر في المنافسة حدود الروس ، إذ ظهر لها ان اميركا هي الاخرى تزاحمها على بلاد العرب ، وتجدّ في هذه المزاحمة حتى تنشىء مصانعها على صدر الحجاز وتمد انابيبها من

تخوم الصحراء إلى شواطىء الابيض المتوسط .

انه لهول ارعد فرائص الانكليز وهز اركان الاروقـــة في وزارة خارجيتها .

وانه لحادث ساق عليها من جنبها عـــدواً هي له أشد خشية منها للروس .

ضع هذا في يدك الآن فسنحتاجه بعد قليل بعـد أن نتحدث عن قابلية العراق للتطور ، وما لها من خطر وتأثـــير على سياسة الانكليز في هذا الموقف الدقيق الحرج .